مـأساة الحـلاج

مسرحية شعرية بقلم صلاح عبد الصبور

منشورات دار الاداب ، بيروت ، ٢٠٨ صفحة

***

قدم صلاح عبد الصبور في مسرحيته الشعرية الاولى « مـأساة الحلاج » شخصية بطل عاش فيما بين سنتي ٢٤٤ هـ ، على الترجيح ، و ٣٠٩ هـ ، ولكنه ينتمي بافكاره واحساسه الى العصر الحاضر .

هذا البطل هو المتصوف الاسلامي الحسين بن منصور الحلاج،الذي استشهد مصلوبا في بغداد من اجل ارائه السياسية والاجتماعية التي جهر بها .

والاتجاه الى التاريخ ظاهرة قوية في المسرح المصري المعاصر . ففي الموسم الحالي شاهدنا على منصة المسرح القومي مسرحية الفريد فـرج « سليمان الحلبي » الذي قتل سنة ١٨٠٠ كليبر ، قائد الحملة الفرنسية على مصر . وكان الفريد قد سبق له منذ ثماني سنوات آن اقتحم التاريخ الفرعوني بمسرحية « سقوط فرعون » التي صورت مأساة رسول السلام، « اخناتون » ، الذي اراد أن يجمع بين دعوة النبي وصولجان الحاكم ، فرأى بلاده تذهب بددا امام جحافل الغزاة .

كما ان المسرح القومي قدم ايضا في هذا الموسم مسرحية عبدالرحمن الشرقاوي الشعرية « الفتى مهران » التي تدور في احدى القرى المصرية في القرن الخامس عشر اثناء حكم المماليك الجراكسة . وعبد الرحمـن الشرقاوي هو الذي مثلت له سنة ١٩٦٢ « مأساة جميلة » : الفتاة التي تصدت للاستعمار الفرنسي انفاشم على الجزائر . وله عدة مسرحيات شعرية اخرى اتم كتابتها من التاريخ هي : « مأساة الحسين »«الاسير»« سانت كاترين » .

وقد صدر للدكتور لويس عوض سنة ١٩٦١ مسرحية تاريخية عـن دار ايزيس بعنوان « الراهب » استقاها مـن تاريخ مصر ايـام حكـم الرومان لها .

ولا تتناول هذه المسرحيات وغيرها التاريخ في حد ذاته ، لكـي تعرض امامنا صفحة مطوية من صفحات المجد الغابر ـ ذلك عمل المؤرخ ومقصده ، بل انها تتخذ من احداثه اطارا تصب في داخله مضمونـا عصريا ، لحمته وسداه هموم هذا الجيل من الادباء الذي يواجه تحديات بالغة ، وموقفه الايجابي من الحياة ، ورؤيته ، واحلامه ..

ويتفاوت التعبير بحسب وعي الكاتـب بظروف المجتمع والمرحلة الحضارية من جهة ، وتوفيق الشكل المسرحي في احتواء المضمون الذي يحمله النص من جهة اخرى .

ومع هذا فلا معدى للكاتب من التزام حقائق التاريخ . اجل ، ومن بعد هذا الالتزام قيدا على الفنان يخطىء. ان حقائق التاريخ ليست ملكا لاحد لكي يتصرف فيها ، اما تفسيرها على اي نحو يراه فهو احد حقوق الكاتب المشروعة ، لان العمل الفني الذي يقيمه من خلقه وابتكاره .

وغني عن البيان آن المسرحية الشعرية التي يكون الشعر احـد عناصرها الداخلية وبعض نسيجها ، وليس قالبا خارجيا ، تبلغ من نفوس المتلقين مناطق لا يستطيع النثر ان يبلغها . ذلك ان لغة الشعر تحمل من امكانيات التكثيف والنبض ما لا تستطيع لغة النثر ، لغة التقرير ذات المفادات المستقرة ، ان تحمله . كما ان لغة الشعر الموقعة اقدر علـى الاحتفاظ بجلال التاريخ ، واحاطته بهذه الهالة العبقة للعتاقة .

وصلاح عبد الصبور شاعر انقاد له نظم القريض ، صدرت له ثلاثة دواوين تؤكد اننا بازاء شاعر فحل هام بالعرب القدماء الى جوار وقوفه على صرح الشعر الاوروبي المعاصر .

لذلك فان معرفتنا بقاموسه الشعري تساعدنا من غير شك علـى تفهم هذه المسرحية التي نحن بصددها ، فان اصداء من المرارة والكآبة والحزن العميق التي اتسمت بها دواوينه تتردد بقوة في هذه المسرحية التي خضع الشعر فيها خضوعا كاملا للمواقف المسرحية .

الامر الذي يجعل الناقد يقرر باطمئنان اننا نتجه بقدم ثابتة الى المسرح الشعري بعد ان قطعنا رحلة طويلة وقف الشعر فيها في المقدمة ثم اتى المسرح .. وقد كان اعلام هذه الرحلة احمد شوقي وعزيز اباظة وعبد الرحمن الشرقاوي رغم خروجه على وحدة البيت والقافية .

ولان شخصية الحلاج هي المحور الذي تدور حوله المسرحية، فمن خلال مأساتها المحتومة سنتعرف على مأساة الوجود كما يراها صلاح عبد الصبور .

فكيف صور شخصية الحلاج ؟

نقابل الحلاج اول ما نقابله مصلوبا في احدى ساحات بغداد ، فيستقر في روعنا اننا مقدمون على عالم مفجع ، صوره الدم ، والجـوع والقحط والجدب ، والقيظ والعمى ، وحروف الفاظها هادئة ، بطيئـة الايقاع ، ولكنها مليئة بالعذاب . تتساءل العامة من حوله عن هذا الشيخ المصلوب الذي « يبدو كالفارق في النوم » ، « عيناه تنسكبان علـى صدره » ، « وكأن ثقلت دنياه على جفنيه ، أو غلبته الايام علـى امره » فهو المتأمل المنكسر المقهور .

ولكن من الذي قتله ؟ بعد قليل نكتشف ان قاتل هذا الشيخ فئتان: قتلتاه بالكلمات التي ضحى حياته من اجلها . الفئة الاولى هي العامة التي اعلنت زندقته وكفره حين خطف بصرها بريق الدينار ، وفئـة الصوفية التي ينتمي اليها ممن احبوا كلماته اكثر مما احبوه « فتركناه يموت لكي تبقى الكلمات » .

بذلك نفهم العلاقة العضوية بين سر الصلب ، وعنوان الجزء الاول من هذه المسرحية المسمى « الكلمة » .

ولم يتم هذا الصلب على غير مشيئة الحلاج ، بل بمشيئته . وقـد اتته هذه المشيئة عن اعتقاد ان دمه سيدب الحياة في عوده الذي يشبه شجرة صغيرة .

« شجيرة جديبة زرعتها بلفظي العقيم
فدبت الحياة فيها ، طالت الاغصان

ثمرة تكون في مجاعة الزمان
خضراء تعطي دون موعد ، بلا اوان »

فالبذل او القضاء على الجوع بعض همومه نحو المجتمع. وباستشهاده كان امينا في دعواه ، وبهذه الامانة ضمن لكلماته الصيرورة والنفاذ .

ثم يجيء صاحبه وحبيبه الشبلي ليناجيه وهو مصلوب . ومن هذه المناجاة المؤسية يتكشف امامنا كاوضح ما يكون جانب الايجابية في شخصية الحلاج الثائر الذي بلغ رتبة اليقين .

« لو كان لي بعض يقينك
لكنت منصوبا الى يمينك . »

ونعود في المنظر الثاني الى الوراء ، فنواجه الشبلي والحلاج وهما يحاوران محاورة من يقفان على طرفي نقيض : الصوفي الزاهد المنسحب من الحياة ، وهو الشبلي ، في مقابلة الصوفي المشارك للحياة ، الذي يتابع مسيرة الشمس فوق الطرقات ، وينطلق كالشهاب « فوق الساحات، الخانات ، المارستانات ، الحمامات » ، حتى يشك ان عينيه ارمدتا من تحديقه في النور الخارجي ، من مواجهة العالم النفس ، بينما الشبلي، المتامل للذات ، يدعوه الى ان ينظر « للنور الباطن » .

وهذه هي علة سعادة الشبلي الذي يرى في قلبه حدائق مثمرة بالاشجار والثمار .. الخ. — هي جنة المسلمين في الارض الجرداء .

ان الشبلي هو الصوفي المعتزل ، الذي يجفل من مخالطة الحياة لانه يجفل من موت نور الله بقلبه أن هو اختلط وتعلق بالحياة . اذ ذاك يسأله الحلاج :

« هبنا جانبنا الدنيا
ماذا نصنع عندئذ بالشر ؟ .. »

سيظل الشر قائما كما هو بالطبع ، ذلك ان مجانبته لا تدمغه .

ويقترب من هذا المعنى ذلك التساؤل الذي ورد على لسان سليمان الحلبي في مسرحية الفريد فرج : « ايستوي عند الله من يعف عن الشر ومن يتصدى للشر ؟ جلت حكمته عن ذلك » (1) ولكن اذا كانت وسيلة سليمان للقضاء على الشر حمل السلاح ، فوسيلة الحلاج الكلمات .

فهل نستطيع ان نرجع السبب الى أن سليمان الحلبي كان يعني بالشر الاستعمار ، بينما الحلاج يعني به في المحل الاول فقر الفقراء وظلم الحكام وفقدان الحرية ، أم ترجع الى نظرة صلاح عبد الصبور ؟

وفي هذا الحوار يبلور الحلاج موقفه :

« يا شبلي
الشر استولى في ملكوت الله
حدثني .. كيف اغض العين عن الدنيا
الا ان يظلم قلبي ؟ »

والمنصرف عن اصلاح العالم قلبه مظلم ، وان مواجهة الشر ، وتقتصر هذه المواجهة على الكلمات ، علامة النور في القلب .

بهذا الموقف يختلف الحلاج مع الصوفية ويرتفع عليهم ، فهو لا يقف عند حد الوجد والتعبد ومناجاة الليل والاحتجاب في آنيته ، بل يتقدم ، يخلع الخرقة التي ترتديها الصوفية ، الى الفعل . وليس خلعه لها خروجا عن الله كما تذهب الجماعة ، بل « اخلعه في مرضاتك .. ». اختار الحلاج هذا الطريق للخلاص . وجملة الاراء التي جهر بها ، ووقف في مواجهة العصر من اجلها ، أن صلاح الامة لا يتم الا بصلاح الوالي ، « قلبها » ، وهو يعتبر ان :

« الوالي العادل
قبس من نور الله ينور بعضا من ارضه
اما الوالي الظالم
فستار يحجب نور الله عن الناس »

ويدافع عن العدل ، القيمة العليا ، ويرى حفظ حقوق الشعب والحكام جميعا .

هذه هي الكلمات التي شقي بها الحلاج لكي تتحقق . ومصدر هذا الشقاء أحساس لديه بعجز الخطو — أي الفعل ، ولعله السيف الذي رفض اتخاذه وسيلة .

« انا انسان يظما للعدل ويقعدني ضيق الخطو »

ويعد هذا العجز قاسما مشتركا في ابطال المآسي ، وهو ضعف انساني لا يرد . لقد كان امام صلاح عبد الصبور فرصة ذهبية لاقامة تراجيديا حقيقية . فلو انه تعمق هذا التوزع النفسي في شخصية الحلاج ، وتابع منحنى الصراع بين الفكر الذي نادى به ، والذي لا يغير وجه الحياة تغييرا جذريا ، والفعل المحتوم ، لو ان صلاح عبد الصبور تابع هذا الانفعال المضارب، يبقيه وينميه ، ولم يقتصر على هذه الاشعاعات التي لا تلبث ان تخبو — لقدم مأساة حقيقية سليمة المنطق الدرامي .

هذا هو الصدع الذي نقام عليه الدراما . اما ما ذكره صلاح عبد الصبور على ظهر الغلاف من ان وقفة الحلاج الحائرة بين ضياع الحقيقة عند المشي بها بين الناس ، او كتمانها في نفسه متلذذا ، فهي غير موجودة في النص المطبوع ، وثمة ما ينقضه ، لان الحلاج كان قد استقر الى طريق الجهر ، ولم يجد فيه خروجا على الله .

وقد اشار الى هذا النقص في الدراما محمود امين العالم في مقالته النقدية القيمة « مأساة الحلاج بلا مأساة » التي نشرت في مجلة « المصور » عدد ١٨ فبراير ١٩٦٦ ، وكرر هذه الاشارة من بعده ناهض الريس في جريدة « اخبار فلسطين » عدد ٧ مارس تحت عنوان «مأساة الحلاج .. مسيح من روح الانسان » .

ويفتتح المنظر الثالث على الخلاف القائم حول الحلاج . فاذا كان البؤساء : الاحدب والاعرج والابرص ، آمنوا به ايمان المخلص ، فان المتصوفة انشقوا فيما بينهم حول خلع الخرقة ، فمن قائل ان خلعها ونزوله الى الناس يخرجه من الصوفية ، ومن قائل ان خلعها لا يعني خلع القلب الذي وسد فيه .. مما يعمق من مجرى التحدث ويدفع به الى الامام .

وبعد قليل يمارس الحلاج دعوته بالقاء التحطب الموجهة الى الغرباء والفقراء والمرضى وكسيري القلب .. مما يذكرنا على التو بالسيد المسيح . ان روحا من نبرة الانبياء تسري في كلمات صلاح عبد الصبور. ولعل اهم ما جاء في هذه الخطبة ان « القحط » مصدر جميع الشرور ، ودعوة الناس الى التشبه بالله على نحو ما تم له .

وبكشف حلول الله فيه اعطى السلطة حق القبض عليه وتكفيره . فظاهر الامر يبدو انه حوكم وادين وصلب من أجل ذلك ، كما ستتبين خلال المحاكمة الصورية في الجزء الثاني من المسرحية ، وباطن الامر انه حوكم من اجل ارائه السياسية في الدولة .

وعلى الرغم من معرفة الشعب هذه الحقيقة ، فلم يكن بطوقهم انقاذ الحلاج من السلطة .

« هذا حق
فالشرطة خدام السلطان
ما للشرطة والحب
فلنطلقه من ايديهم »

بلا جدوى ، فمن قال كلمته وافصح عن رأيه استحق الجزاء . لذلك يوصينا الواعظ في مختتم هذا المنظر قائلا :

(1) — روايات الهلال ، عدد ٢٠١ سبتمبر ١٩٦٥ ، ص ١٢٩ .

في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع
شارع المتنبي

« والعاقل من يتحرز في كلماته
لا يتعرض بالسوء
لنظام او شخص أو وضع أو قانون او قاض أو وال
او محتسب او حاكم »

من اراد السلامة وجب عليه كتم كلماته في صدره . اما من لم يستطع ان يكتمها فسيلقى الوبال .

***

ننتقل بعد ذلك الى الجزء الثاني الذي يسميه صلاح عبد الصبور « الموت » ، وقد تحددت امامنا قضية الحلاج مع الدولة .

ويتألف هذا الجزء من منظرين ، يدور الاول في سجن مظلم بـه سجينان يدخل عليهما الحلاج ، فيسأل احدهما اذا كان القادم :

« سجنوه اذ هو اضعف من أن يفلت من عسف القانون
ام شرير ، قد سلطت الايام عليه شريرا اكبر منه »
بما يوحي ان قانون الغابة هو السائد في هذه الدولة .

ويمثل هذا السجين نموذجا ثالثا مختلفا عن الشبلي والحلاج . انه لا ينسحب من الحياة كالاول ، ولا يؤمن بجدوى الكلمات في استئصال الاشرار والقضاء على النظام الفاسد ، لا ، بل يرى أن الطريق الوحيد الى الاصلاح هو حمل السيف : معنى من اجمل المعاني التي عبقت بهـا هذه المسرحية .

الا ان الحلاج رفض البذرة التي القاها في نفسهذا السجين قبل ان يهرب ، بعلة العجز عن الجزم بموطن الشر ، ولان تكويـن شخصيته لا يسمح له ان يتخذ القتل سبيلا الى اصلاح العالم .

وبالحيرة البالغة بين الصوت والسيف ، الكلمة والقتل ، التمنـي والفعل ، يتفجر العذاب في نفس الحلاج ، ويزداد اقترابا من نفوسنا.

« هل ارفع صوتي ،
ام ارفع سيفي ؟
ماذا اختار .. ؟

مؤلفات سيمون دو بوفوار

ق . ل

- المثقفون ـ رواية جزآن
  ترجمة جورج طرابيشي ١٤٠٠
- انا وسارتر والحياة
  ترجمة عايدة مطرجي ادريس ٤٠٠
- مغامرة الانسان
  ترجمة جورج طرابيشي ١٥٠
- الوجودية وحكمة الشعوب
  ترجمة جورج طرابيشي ١٧٥
- نحو اخلاق وجودية
  ترجمة جورج طرابيشي ٢٢٥
- بريجيت باردو وآفة لوليتا ١٥٠
- قوة الاشياء ـ جزآن
  ترجمة عايدة مطرجي ادريس ١١٠٠

منشورات دار الاداب

ماذا أختار .. ؟ »

ويدور المنظر الثاني في المحكمة التي يتألف قضاتها من ثلاثة، يمثل اثنان منهم حكم السلطة الجائرة ، هما أبو عمر الحمادي وابن سليمان ، ويمثل الثالث الافكار اللامعة عن الحق والعدالة .

ومن الكلمات الاولى لابي عمر :

« لم لم يأتوا بالرجل المفسد حتى الان ؟ »

نرتاب في سلامة المحكمة ، ونعرف ان العدالة لن تأخذ مجراها . فها هو رجل يدان سلفا ، قبل ان يمثل امام قضاته ، فكيف يمكن لكفتي الميزان ان تعتدلا ؟

كانت التهمة التي وجهت الى الحلاج انه يفسد الامة

« مولانا يدري من زمن انك تبغي في الارض فسادا
تلقي بذر الفتنة
في افئدة العامة
وعقول الدهماء »

وفي البداية لا يعترف الحلاج بالقضاة ، ويرفض الدفاع عن نفسه، ثم باستدراجه ان يكون القضاة من اتباعه يعرض تاريخ حياته عرضـا اشبه ما يكون « بالمونولوج » ، في مشهد من اهم مشاهد هذه المسرحية. مشهد نلمس من خلاله الجهاد العظيم الذي عاناه الحلاج مذ كان صغيرا، والتحول الذي طرأ عليه . لقد عرف هذا المصلح الحياة في دركها،وطلب العلم من كتب العلوم والتاريخ فلم تهده الى المعرفة الصحيحة لسـر الوجود ، فاتجه الى الصلاة بدافع الخوف ثم الطمع ، فادرك أنهمشرك..

الى ان التقى بشيخه ابي العاص عمرو بن احمد الـذي علمه كيف يعشق الله في ذاته ، كيف يعطي دون أن يأخذ ـ وهي تهمة الزندقة التي تذرعت بها المحكمة لصلبه ، اذ ان الاسلام لا يوافق علـى عقيدة الحلول ، او استغراق المخلوق في الخالق ، لتمايز الطبيعتين .

اما افكاره الاساسية التي يدعو بها للاصلاح فمحورها :

« لا يفسد امر العامة الا السلطان الفاسد
يستعبدهم ويجوعهم »

لذلك فهو يضع نصب عينيه اصلاح المسئولين عن الدوله ، اولئك الذين يتوقع أن يكون بيدهم الامر في مستقبل الايام، من احبائه الوزراء وامراء الامصار من امثال الماذرائي واحمد بن طولون والقنائي الذين كان الحلاج يراسلهم . فباستيلاء احد هؤلاء على الحكم يتم التوفيق بيـن الكلمة التي وقف حياته لها ، والفعل الذي لم يستطع اداءه ، فتتحقق المدينة الفاضلة التي تخلو من الفقر ، معادل القهر واس البلاء، ويتحاب فيها البشر .

رأى ابو عمر في كلماته تنديدا بالحكم القائم

« الانسان شقي في مملكة الله
معنى هذا ان الامة تشقى في ظل خلافة مولانا »

واتهاما بنهب الاقوات ، ودعوة الى التمرد ايضا .

وقبل ان يصدر الحكم يأتي مبعوث من قبل وزير القصر يحمـل رسالة بها عفو عن الحلاج من تهمة تحريض العامة « عفوا كليا لا رجعة فيه » ، فنلتقط انفاسنا ، ونشعر ان العدالة ممكن ان تستقر ، لان مـن طلب اصلاح المجتمع لا يستحق أن يعاقب ..

ولكن طمأنينتنا تذهب ادراج الرياح ازاء بقية الرسالة التي تحمل ادانة بتهمة الزندقة ، وهو ما فسره ابن سريج بانهم

« فلقد احكمتم حبل الموت
لكن خفتم ان تحيا ذكراه
فاردتم ان تمحوها »

ويستعفي من المجلس ، ويغادر القاعة كصرخة احتجاج .

وبعد ذلك ما كان اسهل ان تؤلب العامة ضد الحلاج ، وتساق لكي يقتل ويصلب في جذع شجرة . وبذلك نعود الى المشهد الاول المفجع الذي افتتحت به هذه المسرحية الشعرية .

نبيل فرج